التعداد السكاني: مفهومه وطرقه وتقويمه واستخداماته
(مطابع دار الشبل للنشر والتوزيع والطباعة - الرياض)
١٩٩٣م / ١٤١٤هـ

د. رشــود الخـريف
مراجعَة: د. محمدعبدالجواد محمدعلي

العد والتعداد من الأمور المهمة التي أرتبطت منذ الأزل بتاريخ البشرية وتطورها عبر العصور فعنيت الحضارات القديمة بالرقم والعد والاحصاء والتعداد. وقد كانت البشرية في مراحلها الأولى وفجر حضاراتها غير معقدة وبالتالي كان أمر العد والتعداد سهلاً ميسوراً نظراً لبساطة الحياة وللقلة العددية ذاتها لما يجب أن يُعد ويُحصى. رغم هذا فقد أولت هذه الحضارات أهمية لهذا الأمر ـ التعداد والأحصاء ـ ولا عجب أن يستمر الاهتمام بالرقم والعد والتعداد على مر العصور والأزمان، بل تتعاظم أهميته وتتزايد مع النمو السكاني البشري وما صاحبه من نمو اقتصادي وعمراني وما صاحب هذا وذاك من تقدم تقني وعلمي إلى أن وصلت البشرية ومع نهايات القرن العشرين إلى ما يمكن أن نُطلق عليه عصر السيادة أو الثورة الرقمية. أكثر من هذا فإن عصر المعلومات وتفجر المعرفة أو عصر ما يُسمى بالمعلوماتية ـ رفيق درب عصر الرقم ـ أو وجهه الآخر ـ لا يمكن أن يستقيم أمره أو يتم استيعاب إلا إذا وجدت العقول البشرية طرقاً وأساليبه لتحسين التعامل مع الرقم والسيطرة عليه والتحكم فيه. ولذا فليس بغريب أذن أن نرى أن معظم محاولات تقنية المعلومات المعاصرة موجهة نحو التعاظم باستخدام أدوات ووسائط هذه المعلوماتية ومفرداتها ـ ونعني بها النص والصورة والصوت ـ وصولاً إلى المستوى الأمثل يتم ذلك كله من خلال التحويل الرقمي Digital Transformation والمعالجة الرقمية Digital Processing لهذه الوسائط المتعددة من وسائل التعامل الحضاري العصري. ولاشك أن التعدادات ـ بالتأكيد والضرورة والحتم ـ هي أحد الينابيع المعطاء التي تروي ـ من معينها الذي لا ينضب ـ ظمأ عصر المعلوماتية وعطشه والرقم أو علملية الأرقمة الجارية الآن على قدم ساق والمتلهفة للمزيد، ومادام البشر ـ ومنذ خلق الله الإنسان من نفس واحدة ـ يتناسلون ويتكاثرون

* استاذ مساعد ـ قسم الجغرافيا ـ الرئاسة العامة لتعلم البنات ـ الرياض

بمتواليات هندسيـة لن يُوقف مدها إلا حين يشاء المولى جل وعلا وتحين الساعـة ويبعثر الله ما في القبور، يوم يحيي سبحانه العظام وهي رميم ثم يُحشر البشر أجمعين.

الرقم إذن حصره والسيطـرة عليه وتطويعـه وجدولته وتبـويبه ومعالجتـه أمر في غايـة الأهمية لتناول أمور حياتنا ودنيانا. ويسعد المرء حقيقة حينما يجد من بين الجغرافيين العرب ذلك الفارس المغـوار الذي أدرك بحسن أهميـة الرقم والعـدّ والتعداد والـذي يؤمن ــ وكما يتضح من مؤلفـه ـ بمؤثراتهم وأبعادهم فأنطلق مؤلفاً كتاباً جغرافياً جديداً تحت عنوان:

«التعداد السكاني: مفهومه، وطرقه، وتقويمه، واستخداماته».

يختلف هذا الكتاب في هدفه ومحتواه وبنائه وتركيبته جملة وتفصيلاً عن تلك الكتب الجغرافية العربية المتكررة والمتشابهة والتي سئم الكثيرون ـ كما يقول البعض ـ من تكرارها وتماثلها وسكونها وركود وسـوق أغلبها وعدم إقبـال المتلقين عليها ويُرجع البعض الآخـر ذلك لعوامل ضعف في بنيتها و إتخاذها لنفسها مساراً تقليداً أحادياً عتيقاً يجتر فيه نفس الموضوع، وتُردد فيه نفس الفكرة التي سـادت لفترات طويلـة دون أن تقدم جـديـداً لا في المحتوى أو المضمـون ولا في المنهج أو الطريقة حيث استمرأت هذه الكتابـات ـ كما ذهب البعض في رأيه ـ المسلك الوصفي التقليدي في عصر تتوجه فيه معظم العلوم لتكون أو تصبح ذات توجه علمي، تطبيقي إنساني. وقد وصل الأمر إلى درجة أن علت صيحات كثيرة تتساءل حقيقة أين اللحم؟ ـ ولا نقول الدسم والشحم ـ الـذي يسد الـرمق والـذي يغني ويسمن من جـوع حيث ما تبقى على المائدة في نظـر الكثيرين أصبح مجرد حسـاء خضروات جغرافي أو مـرقة يصعـب على محتسيها أن يستخلص منهـا مذاقـاً معينـاً أو لـوناً مميـزاً أو رائحـة بعينهـا. والأدهى أن تتكـرر نفس المرقة دائماً على مـائدة الكتـاب الجغرافي العربية ويتلاحق تقديمها صيفاً وشتاء ربيعاً وخريفاً وعلى مر العهود والأعوام دون جدّة أو تجديد أو تقديم نفع مجتمعي إنساني وتطبيقي.

كتاب الخريف حـول التعداد السكـاني كسر القيد والقاعـدة وتحرر من نمطية سـائدة وقدم طبق اليوم الجديد الشهي الخاص وحسناً فعل، بل إنه خـرج عن نغم جنائزي حزين ظل سائداً في عالم تأليف الـدرجات الكتاب الجغرافي العـربي لأمد طويل، نغم يعتمـد على سلم موسيقي متكسر قليل الـدرجات أو ضعيفهـا، ذي إيقاع ثـابت سـاكن. وهو بخـروجه عن هـذا النغم التأليفي السـائد لا يقدم نشازاً بل أنـه في تقديـرنا محاولـة موفقـة لتقديم النغمـة الصحيحة من خلال سيمفونية متوافقة مع التوجه التطبيقي النفعي للعلوم الاجتماعية وأدواتها ومن بينها العلوم الجغرافيـة، وجعلها في خدمـة قضايا المجتمع هـذا من ناحية، كما أن الكتـاب من ناحية ثـانية

يعالج موضوعاً حساساً ومرتبطاً مباشرة بإشكاليات التنمية والتخطيط والتطوير في العالم النامي ودولنا العربية في مكان الصدارة منها، ومن ناحية ثالثة فالكتاب يأتي ليكون مواكباً لطبيعة العصر نجح في إبراز أهمية الرقم والتعامل معه ومع الثورة الرقمية التي تجتاح العالم الآن.

وقد جاء هذا العمل الذي ظهر منذ عدة أشهر في ٣٩٢ صفحة، ويتكون من مقدمة عرضنا لدواعي الإقدام على تأليف الكتاب أحسن المؤلف البحث عنها وعندما وجدها صاغها بلباقة ثم عرض لأهداف دراسته ومصادر بياناتها ثم تلا ذلك متن الكتاب الذي جاءت فصوله - التي بلغت عشرة - متوافقة إلى حد كبير مع الأهداف التي وضعها المؤلف لنفسه من حيث التغطية وتحقيقاً لها حيث اهتم الفصل الأول بمفهوم التعداد وتعريفه وأهدافه وخصائصه مع استعراض لتكاليف بعض التعدادات السكانية في بعض الدول. أما الفصل الثاني فقد خصص للتعرف على تاريخ التعداد السكاني وتطوره وانتشاره. وتلا ذلك الفصل الثالث الذي اهتم بطرق اجراء التعداد وأساليب جمع بياناته والخطوات الأساسية للتحضير لاجرائه وتنفيذه. وخصِّصَ الفصل الرابع للتعريف بالخرائط واستخداماتها في تنفيذ التعداد و إبراز نتائجه بالاضافة إلى جغرافية التعداد المتمثلة في التقسيمات الجغرافية المستخدمة لأغراض التعداد. ثم خصص الفصل الخامس للحديث عن استمارة التعداد ومقوماتها الأساسية، أعقبه الفصل السادس الذي اهتم بمستوى دقة بيانات التعداد ومدى شموليته وأساليب تقويمها. ثم خصص الفصل السابع لدراسة وضع التعدادات السكانية وتاريخها في الدول العربية، بالإضافة إلى تقويم شامل لها من حيث الدقة والمدة المستغرقة لنشر نتائج التعداد. وتلاه فصل آخر (الفصل الثامن) اهتم بتحديد الصعوبات التي تواجه التعدادات السكانية بشكل عام وفي الدول العربية بشكل خاص. وخصص الفصل التاسع لاستعراض أهم أوجه استخدامات بيانات التعداد المتعددة التي تشمل التخطيط بجميع أنواعه ومستوياته كالتخطيط الشامل والتخطيط الحضري والتخطيط التربوي والتخطيط للخدمات الصحية وغيرها، بالإضافة إلى ما يوفره التعداد كإطار للعينات والمسوحات وما يقدمه لقطاعات التجارة والصناعة والتسويق. وفي الفصل الأخير تم التعرف على بعض المفاهيم الأساسية والأساليب الإحصائية المتعلقة بالتعدادات السكانية خاصة، والدراسات السكانية على وجه العموم. ثم جاءت الخاتمة والتوصيات التي أعقبها في نهاية الكتابة قائمة بالمراجع العربية والأجنبية ومجموعة ملاحق بلغت عشرة كان آخرها ملحقاً خُصِّصَ لمجموعة مصطلحات معجمية بالإنجليزية ومقابلها بالعربية في مجال الدراسات السكانية.

يبدو للوهلة الأولى أن الكتاب على هذا المنوال قد نحا منحى تقليديا على الأقل من حيث الشكل والبناء والتسلسل والتركيب (كأي كتاب آخر)، ولكن الكتاب في واقع الأمر للمتمعن

في فصوله ومحتواه ومضمونه قد نحا منحى جديداً أو مختلفاً بطرقه لموضوع حيوي جديد من حيث المحتوى والمضمـون والقضية التي يعـرضها، وعـرض لموضوع ذي أرضيـة جغرافيـة واسعة، أو على الأقل ذات بعد مكاني لابد لجغرافي ـ ربما يشترط أن يكون ـ ماهرا ذا حسٍّ مكاني متقد ـ أن يتناوله، يسبر أغواره، أو على الأقل يكشف لنا عن مسارات العروق الجغرافية وشرايينها الدقيقة وربما الكثيرة التي تسري في جسد هذا الموضـوع أو النظام العلمي ـ التعداد ـ إذا جاز لنا التعبير وتجاوزنـا واعتبرنا أن التعـداد يمكن أن يُـدرج في عـداد النظم والتخصصـات العلمية. وإبـراز جوانب هذا الموضـوع جغرافياً مهمة صعبة في حد ذاتها أداهـا المؤلف على خير وجه. علاوة على ذلك فقد أحسن المؤلـف اختيار موضـوع حيوي للكتـابة فيه فهـو إذن اختيار ذكي بعيـد النظر وموفق جاء في توقيت سليم بـل في وقته تماماً ومواكباً الصحوة التعداديـة التي بدت بوادرها تهل تسري على مجتمعات الـدول الناميـة والدول العربيـة والخليجية منهـا على وجه الخصـوص وبعد سبات عميق طويل، وتدليلاً على ما نقوله نسوق لحجتنا مجموعة النقاط التالية:

(١) أنه في كثير من الـدراسات السكانية التي عـالجها الجغرافيـون، لم يتناولوا فيها مـوضوع التعداد وقضايـاه بشكل تفصيلي، وإنما جاءت معظم اشارتهم إليه تحسّسـاً عن بعد، وليس كما ورد في كتاب الخريف، فضاعت أهمية هذا الموضـوع في تلك المعالجات في زخم العرض الجغرافي التقليدي المعتاد الذي غلب على معظم هذه الكتابات على عكس ما فعل هذا الكتاب وانتهج.

(٢) أن موضوع الكتـاب محل مراجعتنا وإن كان قد تعرض لـه من قبل متخصصون في أفرع علميـة أخـرى (علم الإحصـاء / التخطيط/ الـديمـوجـرافيـا/ علم الاجتماع)، إلا أن هـذه المعالجات التي وردت من قبل تخصصـات أخرى أهملت هذا الموضوع ـ ولا نقول تجاهلت ـ أو على الأقل جاءت مفتقرة إلى الإشـارة إلى الأبعاد الجغرافية (البعد المكـاني الإقليمي). لذا جاءت معـالجة الخريف معالجة وسطيـة جيـدة تميزت بأنها جمعـت بين الشقّ الجغرافي (المكـاني) والشق الفني الإحصائي الرياضي بطريقة متوازنة تحسب للكتاب في ميزان إيجابياته وحسناته.

(٣) عـلاوة على ذلك، فقد استطـاع الكتـاب أن يطرق ذلـك الباب العـالي ـ باب الـرقم والأحصاء والمعادلـة والتحليل الرياضي ـ الـذي ظل فترات طويلة موصـداً في وجه محترفي العلم الجغرافي وممـارسيه لا نـدري بفعل الجغرافيين أنفسهم وقصوراً منهـم رغماً عنهم، فنجده يسلك ذلك الدرب الشـاق، والطريق الـوعر الحافل بالصعـوبات، بل أنـه قد نجح في إبـراز جوانب موضـوع تعدادي إحصائي ظل فترة حكراً على تخصصـات أخرى غير جغرافية لأمـد طويل من الزمن.

(٤) أكثر من هـذا فقد أستطاع المؤلف أن يجمع بين عدة عنـاصر كونت معاً توليفـة من نوع

خاص أضـاف فيها الكاتب وخلط ــ بقدر ومقدار ــ بين جرعات متـوافقة ومتناسبـة فنجد في الكتاب نتفا حول الجغرافيا، والكارتـوجرافيا، والإحصاء، والتاريخ، وعلم السكان، فانبعثت منه أريجاً علميـاً من نـوع خاص وبثت منـه أشعة فأضـاءت عتمة مخيمـة على أجواء الكتـابات الجغرافية.

(٥) أن الكتاب تضمن في عرضـه عدة تجارب تعدادية وإحصـائية شملت عوالم من الشرق والغرب والشمال والجنـوب، وإن كان قد حـاول جاهداً أن يـركز على التجـربة العربيـة محلّلاً لها وناقداً إيـاها ومبرزاً لأوجه النقص فيها. . وقد تحمل الصعـب في ذلك بما بذل من جهد واضح في تصميم وتوزيع استبـانة استطلاع رأي قام بتـوزيعها على جهات الإحصاء والتعـداد المسئولة ليس فقط في العديد من الـدول العربية بل أيضاً في كل من الولايات المتحـدة الأمريكية والمملكة المتحدة واليـابان، حتى يتعرف على تعدادات لبعض الـدول وطرائقها في جمع البيانـات وإجراء التعداد وتصميم الاستمارات.

(٦) أن الكتاب سار في الخط الـذي رسمه وحدده لنفسه بحـذر شديد وحاول أن يقـدم لنا سهلاً ممتنعاً يناسب العديد من المستويات والقراء والتخصصات. فهو مثلاً لم يغص في تفاصيل معـادلات ريـاضية أو نماذج ريـاضيـة معقـدة، رغم أهميتهـا عند الحديث والتطـرق لمثل هـذا الموضوع، ولم يبسط الأمـور التي عالجهـا أيضاً إلى درجة التسطيح، فجـاءت المعالجة في الإجمال ذات خطوط متـوازنة ومتوازية حققت الغـرض منها إلى حد كبير في تزويـد القاريء المتخصص والعام بـوجبة متـوازنة في موضـوع التعداد. وإن افتقـد الكتاب التعمّق في تغطيـة بعض النقاط كمستويات الدقة، الأخطاء، والطرق الحديثة في معالجة ذلك، وكذا الإسقاط السكاني ووسائله باستخدام البيانات التعدادية، فإن ذلك لم يخل بشدة بإجمالي مجموع الكتاب.

وبرغم الإيجابيـات الواضحـة التي يعرضها هـذا الكتاب فإن الأمر لا يخلـو من توجيـه نقد تحليلي لفصوله وإن كـان بعض أوجه هذا النقد شكلي، والآخـر منهجي، والثالث في المضمون والمحتوى. وهذا أمـر لا مفر منه والعمل العلمي الجاد الجيد الذي يذل فيـه جهد هو دائماً محل شغف وإهتمام ونقد القـراء. وسنحاول قدر الطـاقة في نقـدنا وتقييمنا مـراجعتنا لهذا العمل أن نكون منصفين لا تتصيد خطأ بقدر ما يكون منهاجنا دائماً هو إعطاء المؤلف حقه ماله وما عليه، وبهدف السعي ومع المؤلف وقراء هذا الكتاب الآخرين الـوصول إلى الحقيقة العلمية والصواب. وفيما يلي مجموعة الملاحظات حول تقييم هذا العمل:

(١) فالمقدمـة على سبيل المثال اقتصرت على عنصرين أساسيين وهما إبـراز مشكلة وأهداف الـدراسة وأهميتهـا ومصادر بيـاناتها. . وربما لا نتفـق مع الكاتب كثيراً في أن يكـون لكتاب مـا

مشكلة بقـدر ما يكون ذلك لبحث أو دراسـة مصغرة، أمـا الكتاب فعادة مـا يعالج موضـوعاً أوجبته دواعٍ وضرورات، وقد وضح أن المشكلـة التي ربما كانت حافزاً ودافعـاً للكاتب أن يخطو هذه الخطوةَ الشجاعة هو عدم توافر الـدراسات الشاملة والتفصيلية المهتمة بالتعداد السكاني، وإن كان هـذا حافزا طيباً، وهـدفاً سامياً وجليلا، ومهمة خير عـاجلة أيضاً ـ وخـاصة في ظل الصحـوة التعداديـة الراهنـة ـ إلا أننـا لا نعتقد أن هـذه مشكلة بحثيـة أو دراسية في حـد ذاتها تستحق الدراسة بقدر مـا هي مدعاة أو ضرورة تستوجب إجراء الدراسـة. وكم كنا نود أن يفرع لنا المؤلف من هذه المشكلة. مجموعة أخرى من القضايا ذات الصلة.

(٢) أما الفصل الأول فـرغم أنه بـدأ بتعريف التعداد إلا أنـه كان يـؤمل أن يحدد لنا المؤلف ماهيـة هذا الفرع أو التفريعـة وهي «التعداد» بالتحديـد والإسهاب، وعلاقتها بـالعلوم والنظم العلمية الأخـرى (كالجغـرافيا ـ وعلم دراسـات السكان ــ والاقتصاد ــ والإحصاء والتخطيط ـ وعلوم الحاسوب والاجتماع)، وما إذا كان التعداد يمثل تخصصا أو نظاماً علمياً أو أنه مجرد إجراء دوري تنظيمي ــ ربما بيروقراطيـاً في نظر البعض ــ وهل يمكن بتزاوجـه أو تهجينه بنظم وفـروع أخرى أن يثري معنى ومغزى محتوى ومضموناً ويتولد عن ذلك فرع أو نظام علمي جديد يمكن أن يكون أحد فروع تخصص جامعي مثلا، أم أن مادة ـ التعداد ـ شيء وحيد الخلية غير أليف لا يقبل تزاوجاً وأنه من عـالم الجوامد الباردة التي لا تقبل زواجاً أو تزويجاً. هذا ما لم نجـد له إجابة في العرض التـاريخي الطيب لتطور التعدادات. ولعل من حسنات هـذا الفصل ما أورده المؤلف بخصوص تقديرات كلفة التعداد عبر ثقافات تعدادية مختلفة وكذا تقديرات التعداد على مستوى الفـرد الواحـد. وهي نقطـة جيدة تـدرج في إقتصـاديات إجـراء التعـداد وتمثل أهمية وإن كـان التساؤل الذي تـركنا معه الكاتـب حيارى هو أيجوز في دراسات التعـداد أن يجري مثلاً قبلها أو بعـدها دراسـات جـدوى، وماذا عن كيفيـة إجـرائها وإجـراء تحاليل الكلفـة والمنفعة في هـذا الخصوص؟ وهل من مثال يوضح لنا كيفية الحسبة لذلك؟.

(٣) ومما يلفت النظر في الفصل الثـاني الذي أورد عرضاً تاريخياً مسهبـاً لموضوع الكتاب عبر العديد من القص التعـدادي المشوق، تلك القصة حول ما ذكر بخصـوص بعض الدول كألمانيا وهولندة أيسلندة وعدم إجرائها لتعدادات سكانية منذ فترة، وذلك لاعتبارات كنا نود أن نرى لها تحليـلاً أكثـر عمقاً واستطـراداً ممـا أورده المؤلف من تعليق مختصر حـولها، ممـا أثار عـديـدا من التساؤلات والأطروحات تركنا معها المؤلف ـ أيضاً ـ حيارى دون إجابة شافية وبعد قصة المشوق لتاريخ التعداد. ومن بين هذه التساؤلات مثلاً هل مع تقدم الأمم الحاجة إلى إجراء التعدادات؟ وحيث يمكن أن يكتفي فقط مثلاً بالتسجيل والعينة. وما خطورة ذلك على الدقة والشمولية؟. وهل التقدم في علوم الحاسوب والنمـذجة الرياضية وتقنيات الإتصـال العاتية القوة والحواسيب

الفائقة الأداء ستغنينا إن آجلاً أو عاجلاً كلية وتماماً، وتزيل عن اهل الشعوب والأمم وميزانياتها عبء إجراء التعداد؟ وهل ستؤول معظم الدول أن عاجلاً أو آجلاً وحتى تلك النامية منها والعربية من بينها إلى مآل هولندة والدنمارك والمانيا وأيسلندة تستغني عن التعداد بتقاليده وأعرافه التي عرضها المؤلف في كتابه وسيحل محلها شيء آخر؟ أم أن الأمر مازال في علم الغيب؟؟ وهل هذا الشيء الآخر سيكون أكثر دقة أو أقل؟ وهل أمر توقيف التعداد أو البحث عن بدائل له وكما في بعض الحالات (هولندة وألمانيا) يعود مثلاً بالدرجة الأولى فقط إلى أنسجة وتركيبة المجتمعات وديناماياتها الاجتماعية التي تعظم من خصوصية الأفراد، وترتبط بالمدى أو الحد لنطاقات حرية الإفصاح عن معلومات، والإجابة عن تساؤلات ما تؤدي إلى بيانات يرغب في الإدلاء بها من عدمه حين يجري تعداد هنا أو هناك، مما قد لا يستوجب معه إجراء تعداد احتراماً لتلك الخصوصية. ثم ماهو الموقف الاسلامي وتجارب التعداد في صدر الإسلام وعصوره اللاحقة وخاصة التجربة العمرية والأموية والأندلسية والأيوبية وغيرها كثير في هذا الصدد؟ ةفلربما بإحيائهم ــ تلك التجارب ـ يكون هناك مخرج وحل. وكنا نأمل أن نرى بعض الخطوط العريضة التي يمكن أن تستشف من التجربة الإسلامية في التعداد ـ وربما على بساطتها فقد تثبت صلاحيتها لأمكنة وأزمنة وأوضاع المسلمين الراهنة. وهل من أدبيات تتعلق بموضوع التعداد في الفكر الإسلامي؟

(٤) يبدأ الثقل الحقيقي للكتاب يتضح مع بداية الفصل الثالث حيث عرض فيه المؤلف لأربعة عناصر متوازنة ومتصلة تتعلق بكل من طرق إجراء التعداد، أساليب جمع البيانات، وتوقيت التعداد والخطة الشاملة لتنفيذه. وقد جاء هذا الفصل متعمقاً وشاملاً وإن كان ما ذكر بخصوص العمل الكارتوجرافي أو الخرائطي (فقرة ٦ ص ٧١) في هذا الفصل، وتحديد مناطق العد أو المناطق الإحصائية (فقرة ٧ ص ٧٠) جاءت في معالجة مختصرة لم تشف معها حتى المعالجة الكارتوجرافية الأكثر طولا في الفصل التالي ـ على الأقل ـ للإجابة عن تساؤلات خاصة بالمعايير المستخدمة أو المقترحة من جانب المؤلف في تحديد تلك المناطق، وكذا الإشكاليات المحيطة بتلك العملية. فلربما أضفت العناية بذلك على هذا الجزء أهمية وثقلاً علمياً مفيداً. وما أنتقض هنا هو عدم الربط بين الفقرتين (رقم ٦ ورقم ٧) والفقرة (٩ ص ٧٦) المتعلقة ببرامج التبويب والفقرة (١٠ ص ٧٧) المتعلقة باختبارات التعداد والفقرة (١٢ ص ٧٨) المتعلقة بخطة العد ويلاحظ عدم وجود فقرة (١١) ولربما سقطت طباعياً. وما يدعونا إلى التساؤل بعد قراءة هذا الفصل إلا من إطار ـ على الأقل ـ نظري محكم أو طريقة رياضية تحكم أو تتحكم في هرمية جغرافية التعداد وتدرجها من القمة (الوحدات التي هي أكبر حجماً سكانياً)؟ إلى القاعدة (الوحدات الأقل حجماً سكانيا) وهل نظرية المكان المركزي أو البؤرة المركزية رغم مثالبها هي

فقط الإطار الأمثل؟ . . أم أن هناك جديداً في هذا الصدد من طرق وأساليب يمكن أن يتمحور حـولـه أسلـوب التقسيم والتـدرج؟ . . أم أن الأمـر يجب يترك لمعـايير تتعلق بظـروف المكـان والزمـان؟ . وهل مشاكل التعـدادات تنبع في معظمها من ذات النقطة بعينهـا ـ معـايير التدرج وتقسيمات الـوحدات الإحصـائية)؟ أم أن أهـواء واضعي الخطط والسياسـات وتوجهـاتهم هي أساس وضـع معايير التقسيم؟ آثـر المؤلف على ما يبـدو ـ عـدم الخوض في اشكاليات كـل هذا وذلك تفصيلاً رغم أهمية القضية .

(٥) وقد جـاء الفصل الرابع عاماً ووصفيـاً رغم أهميته في محاولة لإبراز العـلاقة بين الخرائط والتعداد ، ويا حبذا لو أن أمثلة تطبيقية ذات طبيعية تعدادية محلولة قد ضربت وحسبت ومثلت بديـلاً عن المعلومات السكانيـة وطرق التمثيل الكارتـوجرافية المعتـادة والتي نجدها متناثـرة هنا وهناك في العديد من الكتب الجغرافية وجاءت في هذا الكتاب نبذات ونتفا ، ونرى أن موقع هذا الفصل قد جاء عازلاً أو فاصلاً بين الفصول الأولى (الثـلاث) وما تلا الرابع من حشد من عدة فصول تمثل امتداداً طبيعيـاً كان يجب أن يستمر بين الفصل الثالث والخامـس والسادس قطعها الفصل الرابع والذي كنا نرى بأن يؤخر موقعـه قليلاً فالفصول ٣ , ٥ , ٦ معاً تكون وحدة متصلة ثم يرتبط بهم أكثر الفصل الثامن مكملا هذه الوحدة ليصبح سابعاً وهذا يعالج الموضوع المتعلق بالصعـوبات التي تـواجه إجراء التعـدادات لذا نـرى أن يصبح الثامن سـابعاً ويصبح الفصل التـاسع ثـامنـاً ثم تجيء الخرائط كفصل تـاسع ويبقى العـاشر كما هو أو أن يكـون في المقـدمـة والمدخل . هـذا ويحتاج فصل الخرائط والتمثيل الكـارتوجرافي إلى مـزيد من التنقيح والتحـديث لعل يكون ذلك في طبعـه قادمة ، وكنا نأمل تـوضيحاً أفضل لعلاقة التعداد ، بنظـم المعلومات الجغرافيـة وكيفية استخدام هذه التقنيـة في التعداد ، ومادام المؤلف قد أورد مسمى هـذه التقنية ولكن في جملة وكلمات معـدودة فقط وقد كنا نأمل أن يتمشى الكتـاب ـ الأكاديمي ـ الذي من المفترض أن يسبق ما يجري في الميدان والادارات الحكومية ـ مع التحديث الجاري في معظم أجهزة الأحصاء والتعداد حتى بالعـديد من الدول النامية الآن نظرا لإيمانها بأنه بـاستخدام هذه التقنية (نظم المعلومات الجغرافية) وتطبيقها في مجال الدراسـات السكانية والتعداد سيمثل نقلة تساعد على حل كثير من التعقيدات والصعوبات والمشاكل الفنية المتعلقة بالتعداد وأجراءاته وتقسيماته وتمثيل بيـاناتـه وتحليلها بإدخـال الأتمتـة والآلية على كل هـذا وذاك . ونرى أن التـزاوج بين نظم المعلومات الجغرافية من ناحية والتعدادات من نـاحية ثانية سيثير إلى حد كبير قضايا إتخاذ القرار وسيجعلها أكثـر دقة وصوابـاً ومعقولية . ويتضح ذلك ممـا أورده المؤلف بإختصار شديـد أيضاً حول نظـام تيجر Tiger الأمريكي الذي هو في الواقع نظـام معلومات جغرافي تعدادي ممتاز تتبناه هيئة التعدادات الأمريكية ، وتنظم دورات منتظمة حل استخـداماته وتطبيقاته للعديد من

أبناء الدول النامية وبالتعاون مع الأمم المتحدة.

يأمل القاريء لهذا الفصل ـ خاصة إذا كان جغرافيا يقدس ويعظم أمر الخريطة والتمثيل الكارتوجرافي ـ أن يحظى ــ وربما في طبعة قادمة مزيدة ومنقحة ـ بمزيد من التحديث والتجديد لتلك الطرق التقليدية بل العتيقة، التي عرضها ذلك الفصل والتي أصبحت طرق إنشائها اليدوية غير قادرة على معالجة كم البيانات الهائلة التي يتناولها التعداد أو التي تستخرج من نتائجه فيما بعد وحيث يعتقد الكثيرون الآن ـ خاصة من الكارتوجرافيين المحدثين أنصار الآلية والأتمتة وإستخدام علوم الرسوم الحاسوبية ودمجها مع نظم دعم اتخاذ القرارات خاصة المكاتبة منها ــ يعتقد كل هؤلاء وأولئك بعدم مقدره هذه الطرق التقليدية على تمثيل بيانات التعداد المركبة والمتعددة الأبعاد والأطراف مما دفعهم حتى بالقول ـ أو بالاعتقاد ـ ومع التقدم في التمثيل الرسومي الحاسوبي إن هذه الطرق العتيقة أصبحت طرق تزيين أكثر منها طرق تمثيل ولا يمكن لصانع قرار عصري أو واضع سياسات واعٍ أو يجازف باتخاذ قراره على أساسها.

(٦) تعمق الفصل الخامس وسبر أغوار النواحي الفنية المتعلقة باستمارة التعداد وتجهيزها. وفي هذا فائدة جمة وأثرى الفصل أيضاً بنبذة حول كيفية التعامل مع البيانات المفقودة والتي يمكن للقاريء الأكاديمي والباحث في أفرع عدة أن ينتهج منهاجها حينما يقابل مشاكل بيانات مفقودة مماثلة في معالجاته البحثية خاصة على مستوى الرسائل والأطروحات العلمية أو الدراسات والبحوث المسحية التي تمثل فيها عادة قضية البيانات المفقودة إشكالية ـ ولا نقول أزمةـ علمية مزمنة.

(٧) ولعل من حسنات الفصل السادس معالجته لقضية الأخطاء ودقة بيانات التعداد وطرق تقويمها وجاءت المؤشرات وطرق حسابها إضافة طيبة في هذا الصدد مع إبراز المزايا ومساويء كل طريقة وهي مؤشرات حسابية نقرر أن أغلبها يمكن وصفه بأنه خام إلى حد ما، وهناك العديد من الطرق الأخرى التي ربما لم يتسع إطار هذا الكتاب لها وتعتمد على الإحصاء الرياضي ونظرية الاحتمالات وبعض النماذج الرياضية المعقدة ربما تكون أكثر دقة في مؤداها وإن كان ذلك إذا تضمن واشتمل سيُضفي وسيضيف ربما تعقيداً على محتوى الكتاب آثر المؤلف أن يتجنبه ربما عملاً بمبدأ السلامة ـ أو البساطة ـ أو لا وهو ما نتفق فيه معه وإن كنا في نفس الوقت نود قراءة المزيد حول واحدة من اختبارات الجودة والتحسين التي ذكرت في نهاية هذا الفصل دون إشارة تفضيلية إلى دقائقها الرياضية المعقدة أو كيفية إجرائها ذلك حتى تعم الفائدة.

(٨) مثّل الفصل السابع عرضاً تاريخياً مسهباً جيداً لتجارب العديد من الدول العربية في

مجال التعداد وتاريخ إجرائها وكنا نود في نهاية الفصل أن نخلص إلى أهم الخطوط العريضة أو الملامح الرئيسة التي يتصف بها التعداد العربي، وماهي المقترحات العملية أو التوصيات في هذا الخصوص. وهل يؤمل يوما ما في توحيد قياس على الأقل لمعايير ومواصفات قياسية موحدة.

ومن سوء الطالع ـ وإن كان ذلك أمراً متوقعاً ـ أن يظهر بوضوح من خلال عرض هذه التجارب تفاوت واضح في طريقة الإجراء والنتائج والدقة والتوقيت وطبيعة البيانات بين دولة عربية وأخرى. ويشكر المؤلف على إبرازه لهذا التفاوت وتتبعه الطيب عبر الإستبانة والإستمارة وتاريخ تعداد كل دولة للوصول إلى حقيقة التفاوت. فلا أرضية مشتركة ولا قواسم مشتركة ـ حتى بحد أدنى ـ تجمع أقطار أمة العرب تعدادياً. ونرى أنه ربما لا غبار أو اعتراض على أن يكون لكل دولة عربية خصوصية تعدادية ما طريقة ومنهجاً، أو محتوى ودقة فهذه حكمة الخالق في جعلنا شعوباً وقبائل، ولكن ميزة فصل الخريف السابع أنه ربما جعل بإمكان معشر العرب أن يتعرف بعضهم على البعض على الأقل تعدادياً، ويدركوا كم هو حجم التفاوت وإنعدام التنسيق، والتوحيد القياسي، فيما بين تعداداتهم. ونتيجة لما عرض في هذا الفصل، فإن الحيرة حول حقيقة العدد الفعلي لسكان الدول العربية تزول بعد قراءة هذا الفصل. . ولا عجب أننا سنظل ندور في دائرة التساؤل المفرغة ـ وربما المفزعة ـ ـ عن حقيقة العدد الحقيقي لسكان الوطن العربي وهل هو ١٥٠ مليون أو ١٨٠ مليون أو ٢٠٠ مليون أو ٢٢٠ مليون أو ٢٥٠ مليون نسمة ولربما إلى أمد طويل؟؟. ومن ميزات هذا الفصل أيضاً ما يثيره في نفس القاريء العربي من مشاعر الأخوة العربية الحبيسة وخلجاتها النابضة وشجونها الكثيرة ويتساءل المرء أما آن الأوان أن تتفق الدول العربي على حد أدنى من التنسيق فيما بينها على طريقة وأسلوب عد أنفسهم فلعل يكون هذا لفاتحة الطريق لتنسيق أفضل علي مستويات أخرى اقتصادية واستراتيجية ومصيرية.

(٩) كنا نأمل أيضاً أنه بعد العرض الطيب للصعوبات العديدة التي أوردها المؤلف في الفصل الثامن حول إجراء التعدادات أن يوضح لنا أو يقترح بعض الحلو للتغلب على هذه الصعاب، ولا يترك الأمر معلقاً هكذا فبعضها غير مستحيل بل أن معظمها يمكن معالجته ودرؤه وخاصة أنه قام بعمل مسوحات جيدة للعديد من تجارب الدول التعدادية التي بعقد المقارنة بينها أو من خلال الدراسات المقارنة واستخلاص الخبرات يمكن أن يتم تلافي بعض هذه الصعاب. ولعل مجموعة التوصيات بخاتمة الكتاب إشارة أوردت قليلا من المقترحات في هذا الخصوص.

(١٠) أجمل الفصل التاسع أوجه استخدامات بيانات التعدادات أو بالأحرى فوائده وأبرز المؤلف علاقته الأساسية بالتخطيط والتغيرات الاجتماعية والاقتصادية وأغراض البحوث والدراسات المقارنة، وكونه إطاراً للعينات والدراسات المسحية وتقويم الإحصاءات الحيوية وغيرها وكذا أثره في شؤون التجارة والصناعة والتسويق. وهو فصل أحكم عرض عناصره بدقة فائقة، ولعلنا نضيف إلى ما أورده المؤلف أحد الأستخدامات أو الفوائد الكبرى للتعداد لما يمكن أن يسمى الدراسات الإستراتيجية التي تجريها بعض الدول وتوجه سياساتها على أساسها وتساعدها في دعم اتخاذ القرارات المصيرية وقرارات السياسات الرئيسة على مختلف أنواعها. ولا يخف على أحد ذلك الأرق الذي سببته الأحصاءات الحيوية المتعلقة بمعدلات المواليد المتزايدة والمرتفعة نسبياً والإسقاطات السكانية الخاصة بالجمهوريات السوفيتية الإسلامية ـ والتي كانت في الحوزة السوفيتية واستقلت الآن على آية حال ـ والتي كتم النظام الشيوعي تنفاصيلها و إن لم تخف على المتخصصين في العالم الغربي ـ مما دعا السوفييت آنذاك أن يضعوا إستراتيجيات التذويب والامتصاص لهذه الشعوب المتكاثرة وسياسات عليها في القدر السوفيتي حتى التبخر والتلاشي، وحيث كانت التوقعات تشير إلى أنه إن آجلاً أو عاجلاً ستصبح هذه الجمهوريات أغلبية عددية، وحمداً لله أن انفصلت واستقلت على أية حال. ولعل اسقاطات النمو السكاني لعرب الضفة والقطاع مقارنة بالإسرائيليين تسبب قلقا استراتيجياً غير قليل لإسرائيل حتى في ظل معاهدات السلام ومشاريعه الجارية الآن ومعادلاته الصعبة المجهولة في طرف واحد أو طرفين.

ولعلنا نضيف أن أهمية التعدادات الاستراتيجية تتزايد اليوم وخاصة في ظلال ما يسمى النظام ـ أو اللانظام ـ العالمي الجديد وعوالم التكتلات والتجمعات الكبرى التي ولاشك سيكون التصنيف بينها وفيها بين وحداتها وحدودها على أسس تستقي مؤشراتها من التعدادات لكل وحدة داخلها وعندما تتمكن الدول من معرفة تعداد كل منها وخصائص تركيباتها السكانية ومؤشراتها الاقتصادية يمكن أن تصنف نفسها في سجلات هذا العالم أو نظامه ـ أو لا نظامه الجديد خاصة في فرعه أو قائمة ترتيبه الاقتصادي ـ وما إذا كانت هذه الدول أسوداً فيه مالكة ومستحوذة أو نموراً جريئة صاعدة أو مجرد حُمْلان وديعة وشياه ذبيحة.

أراد الكاتب أن يخبرنا بكتابه اجمالاً إن احتلال مقعد في قطار الحضارة سواء كان هذا المقعد في الدرجة الأولى الممتازة منه أو في سبنسة (ذيل) هذا القطار وخاصة في ظل النظام ـ أو اللانظام الدولي الجديد يتطلب عمليات جرد وحصر وعد وتعداد وتنبؤ وإسقاط ليس فقط للسكان بل إبراز تفصيلي لخصائصهم وتركيبهم ومواردهم وعلى الدول العربية أن تدرك وتعي ذلك جيداً وتستعد وتعد استجابة ـ أيضا ـ للنداء الإلهي الذي يدعونا أن نعدّ لهم من قوة ومن رباط الخيل

تلك هي الصيحة التي ربما حاول الخريف في ثنايا كتابه ـ عامة ـ وفي فصليه السابع والتاسع تحديداً أن يطلقها عالية مدوية.

(١١) الفصل العاشر والأخير فهو معجم مصطلحات لبعض المفاهيم لاشك المفاهيم لاشك أنه أثرى باقي المتن وإن كان القاريء يشعر أنه أما أن يكون قد جاء متأخراً من حيث الموقع فكان يجب أن تكون هذه المفاهيم والمصطلحات واضحة للقاريء قبل أن يخوض في غمار المتن، كمقدمة ومدخل، شعور آخر يشعر به قاريء هذا الفصل وهو أنه جاء كجزيرة منعزلة ربما نقترح وفي طبعة قادمة للمؤلف أن يقيم بينها وبين باقي الكتاب جسراً، فمحتوى هذا الفصل يجب أن يكون مدخلاً أو معبراً لشيء يأتي بعدها. هذا الفصل بموضعه الحالي كأنه الحصان خلف العربة وليس أمامها. ولعل أيضاً يكون في توسيع الاطار المفاهيمي الجيد الذي عرضه المؤلف وزيادة قاعدة مصطلحاته إضافة طيبة تعطي الكتاب وزناً وثقلاً علمياً أوى وأشمل.

(١٢) اتسمت مراجع الكتاب العربية والانجليزية بحداثتها ومحاولتها اللحاق حتى بما طبع في أوائل التسعينيات وهي حسنة نفتقدها في كثير من الكتب الجغرافية وتجعل القاريء آمنا مطمئنا على أن ما يقرؤه عصري وجديد ومواكب لآخر ماورد في أدبيات هذا الموضوع، وإن ندرت بالقائمة تلك الكتب الأكثر تخصصية والتي تعرض للشق الرياضي الحسابي لهذا الموضوع ولمن يريد أن يتوسع في قراءته.

(١٣) الملاحق تمثل حشدا طيباً حافلاً بكثير من المعلومات والبيانات التي يمكن أن يفيد منها الكثيرون وجاءت جميعها في موضعها تماماً وإن كان يمكن زيادة أمثالها وقد جاء ملحق المصطلحات السكانية في خاتمة الكتاب دقيقاً في معظمه من حيث المصطلح ومرادفه بالإنجليزية على عكس كثير من المصطلحات الأخرى التي وردت في ثنايا المتن وأجتهد المؤلف في محاولة البحث عن مرادف أو بديل عربي لها لكن لم هذه البدائل لم تأت معبرة عن الأصل أو المقصود بالانجليزية منها. ومن ذلك على سبيل المثال مفردات: تراكم الأعمار Age Heaping، وتبديل الأعمار Age Shifting enumenotion survey وكلمة بلوك واستخدامها Block كما هي دون ترجمة الاختيار البعدي Post وغيرها كثير ولعل في استشارة أحد اللغو يين والمتخصصين في الاشتقاق اللغوي والذي يجيد العربية والانجليزية يكون فيه وحول إلى تدقيق لغوي أفضل لهذه المصطلحات.

الكتاب الذي عرضنا له جديد في موضوعه، جيد في عرضه، حسن في اخراجه جاء ليسد فجوة ظلت خاوية لفترة طويلة. وقد غرس الخريف بهذا المؤلف فسيلة جغرافية علمية طيبة

طال انتظـار وقت غرسها، وثقتي عـالية أن هذا الغرس سيـؤتي أكله وستثمر هـذه الفسيلة ثماراً يانعة.

ويستطيع المتتبع للدراسات السكـانية عموماً وخاصـة تلك القليلة التي تأتي من الجغرافيين أن يقرر أن كتـاب الخريف استطاع بمقدرة أن يخترق صفـوف الأنظمة والأفرع العلمية العـديدة وذات الصلة والتي تتصارع لتحوز على مـوضوع التعداد، ويجد له موطأ قدم فيهـا ثم يرفع بينها علماً جغرافياً خفاقاً وبيرقـاً رفرافاً وراية عالية.. يقول هذا الكتـاب الجغرافي ببساطة.. إنه يجب ألا يُفتي في موضوع يمس السكان والبشر وعالم العوائل البشرية وتكاثرها عبر الزمان وفوق المكان ونحن أهل الجغرافيا البشرية وجغرافية السكـان هنا قاعدون... إذن فإحدى حسنات الكتاب أيضاً في كـونه قـدوة للجغرافي العربي الـذي عليه الأيهاب الصعب بل عليـه أن يقتحم العقبة، ويتخطى الحاجـز ويكسر الطوق ويفك الحصـار ويلقي القيـد ويقدم الجديـد ويزاحم بفكـره ومنهجـه ومباديء علمـه ويُطلق العنـان لفراستـه أو أفـراسه في سـاحـة اختلطت فيها العلـوم وتشابكت خطوطها، ولكن يظل فيها البقاء للنابل لا الحابل البقاء فيها يكون للأصلح والجديد والمختلف والعلمي والتطبيقي الإنسـاني، وتمامـا فقـد فعـل هـذا الكتـاب حيث ركب مـؤلفـه الصعب وخاض بحرا لجيا عاصفا متلاطم الأمواج وأبحـر بنا من خلال فصول كتابه في مضايق وخلجان هـذا الموضوع ـ التعداد السكـاني ـ بمهارة ربـان مقتدر. ويجد المرء بعد قراءتـه أن هذا الربان قد حط بنا ورَسَا ببر الأمان ـ وأثبت وهذا ربما هو أهم ما في الكتاب ـ إنه ليس هناك شيء (موضوع) يستعصي على المعالجة الجغرافية.

يستحق إذن الكتاب منا تـرشيحاً قوياً ليكون في مكتبـة كل جغرافي أكاديمي متخصص أو آخر ممارس عام أو حتى طالب للعلم الجغرافي في مراحل البكالوريوس، وكذا الباحث الجغرافي فيما بعد البكـالوريـوس، أرشح الكتاب أيضـا لكي ينهل منـه العديد مـن المتخصصين في أفرع أخـرى علمية مستقلـة أو ذات قـربى بالجغـرافيـا كالاقتصـاد والسيـاسة والاحصـاء والاجتماع والديمـوجرافيـا والتخطيط بأنـواعه وأفرعـه، وكذلـك أوصى مراكـز البحوث والـدراسات على أنواعها الأكاديمي منها وتلك التي تقدم الخدمة والخبرة الاستشارية باقتناء هذا السفر القيم.

أرشحه أيضاً بقوة لكي يستفاد منه من قبل ادارات الاحصاء ومؤسساتها بالوزارات والمصالح الحكومية وللعديـد من هيئات قطاعات الاقتصاد العام الخاص. ولعل فـائدته تعظم لدى تلك الهيئـات والمؤسسات القـائمـة على عمليات التعـداد بـالدول العـربيـة جمعاء. وكـذا منظمات ومـؤسسـات التنسيق على المستـوى الإسـلامـي والعـربي والخليجي كمنظمـة المؤتمر الإسـلامي ومؤسسـات الجامعة العـربية ومؤسسـات مجلس التعاون الخليجي. الكتـاب في الواقع يجب أن

يقتنيه أي مثقف فهو يزين مكتبة كل شخص .

الكتاب أيضاً يرفد بقوة أي مقرر يقدم في جغرافية السكان أو الدراسات السكانية على مستوى البكالوريوس وفي مراحل الدراسات العليا في الجغرافيا ، ويرفد مقررات أكاديمية أخرى على نفس المستويات في الاقتصاد والاجتماع والاحصاء والتخطيط .

لقد جاء كتاب الخريف في فترة يطلق عليها الكثيرون خريف الجغرافيا العربي . . جاء في تقديرنا ليضيء شمعة وليحيي أملاً ويوقد شعلة ولعله ـ وبعد كتاب الخريف ، وإذا ما توالت أعمال مماثلة ـ أن ينقشع خريف الجغرافيا العربية ويعود ربيعها الذي ذهب وولى مشرقا وضاءاً .